لمحة من حياة نَعم

لست أدري إن كان اسمها نِعم أم نَعم، ولعلّه الأخير، يحملني على هذا الترجيح معرفتي بظروفها ومحيطها الذي يجعل أهلها أقرب إلى استحسان الطاعة من الأنثى منهم إلى اعتبارها نعمة هبطت عليهم، أو جلاّبة للنِعم، لحس طالع يرافقها.

كان واضحاً أنه كان لهم ما أرادوه من تسميتها، فنَعم قلّما استجابت بغير القبول والانصياع لكل ما كان يطلب منها القيام به، أكان ذلك الزواج وهي لا تزال أقرب إلى الطفولة، أم الحمل بعد أن أنجبت ما يزيد عن العشرة أطفال، أم أي عمل من أعمال الزراعة ورعاية الماشية والاعتناء بالمنزل وأهله.

لا أعلم أين أصبحت وما حدث لها في السنين الكثيرة التي تلت زيارتها لمنزلي لتفقّد ابنتها التي عاونتني في أعمالي المنزلية لبضع سنوات. لكنني من وقت لآخر أتذكّر ما روته لي من تفاصيل وظروف ولادة طفلها التاسع.

قالت: "كنّا قد تأخّرنا ف يحصد الحنطة وبتنا نخاف أن يأتي المطر وقمحنا على الأرض فنخسر عناء شهور طويلة. لذلك كنت أحصد مع زوجي وأخوته والأقدر من أطفالي، وعيننا تنظر بين الفينة والأخرى بتوجّس ورجاء نحو الغيوم المسودّة. وفاجأني الطلق وأنا أحصد جالسة القرفصاء وسط السنابل. تابعت العمل، لكنّ الطلق ما لبث أن اشتدّ وشعرت بقرب ولادة الطفل. انتحيت خلف حائط الحاكورة حتى ولد الطفل، فقطعت له حبل السرّة بحجر وحملته وذهبت على البيت وأنا في حالة من الإعياء. ما كدت أتمدد في الفراش، حتى رأيت زوجي يدخل بلهفة قائلاً: "يمكنك أن ترتاحي ما شئت بعد المغرب، لكننا الآن بحاجة إلى الإسراع في إنهاء الحصيدة، فواضح أن الليلة ستكون ماطرة". كنت تعبة لم تكد أوجاع الولادة تفارقني، لكني تحاملت على نفسي ووضعت الطفل في "شقلبان" ربطته حول عنقي وعدت إلى الحصيدة حتى غابت الشمس".

أذهلتني قصّتها هذه. وساءلتها عمّا حدا بها إلى القيام بهذا العمل المضني فوق الاحتمال، الذي كان من شأنه أن يعرّضها للخطر صحيّاً. أجابتني وابتسامة خفرة تلوح على وجهها المشرق صحة والمتغضّن من كثرة التعرّض لأشعة الشمس: "ما حثّني على التغلب على وجعي كان فرحي لأن زوجي نظر في وجهي وعلقت عيناه الراجيتان في عيني وهو يطلب مني هذه الخدمة.

لم يكن هذا يحدث كثيراً بيننا. فعادة يسير أمامي، في الحقل وأثناء التنقّل من مكان إلى آخر، فلا أرى وجهه ولا تلتقي عيوننا، وفي البيت يصدر أوامره ويطلب حاجته وهو ينظر إلى أي شيء آخر. فلولا أولادي وتعلقهم الصريح بي، لكنت اقتنعت بأنني شبح أو لابسة لطاقية الإخفاء. لعلّ فرح قلبي بتلقّي نظرات خصّني بها كان أقوى من آلام جسدي".

"كنت أيضاً فخورة بهذا الاعتراف الضمني بأهمية عملي. فالجميع، بما فيهم أهلي كانوا ينظرون إلى عملي على أنه إعانة عرضيّة، طفيفة وبطبيعة الحال. وطلب زوجي العون مني يومها كان بمثابة اعتراف بأهميّة بل وخطورة ما يمكنني القيام به. لذلك، أردت بفخر وامتنان أن أكون عند حسن ظنّه".

"بل أذكر أنه كان يومها للحصيدة متعة لم أعرفها في أي يوم آخر. فرغم الوجع، شعرت بأهميتي وبحب زوجي لي. شعرت بفرح وفخر بطفلي عليّ لم أشعر بهما إزاء أي من ولاداتي الأخرى. وهو من يومها أحبّ أطفالي إلى قلبي".

نجلاء حمادة